الدرس اللغوي وأثره في إبراز المقاصد القيمية والأخلاقية
في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

إسماعيل رمضان
باحث بسلك الدكتوراه
مختبر الدراسات الإسلامية والأنساق المعرفية
جامعة شعيب الدكالي كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ismailramdane80@gmail.com
تحت إشراف: الأستاذ الدكتور عبد الجبار لند
المملكة المغربية

الملخص:

يروم هذا البحث الكشف عن طبيعة التكامل المعرفي بين أدوات الدرس اللغوي والمقاصد القيمية في التجربة التفسيرية لـ "أبي حيان الأندلسي" من خلال كتابه "البحر المحيط". وتتجلى إشكالية الدراسة في رصد كيفية تحول القواعد النحوية، والصرفية، والبلاغية من قوالب صورية مجردة إلى آليات إجرائية لاستنباط الأخلاق وترسيخ القيم القرآنية. وقد اعتمد الباحث منهجا استقرائياً تحليلياً لاستنطاق النص الأحياني، مبرزاً أن اللغة عند أبي حيان لم تكن غاية في ذاتها، بل كانت وسيلة منهجية لاستكناه الجوانب التربوية والإيمانية الكامنة في النظم القرآني. وخلصت الدراسة إلى أن براعة أبي حيان في توظيف "علوم اللسان" مكنته من بناء "هندسة قيمية" متكاملة، تربط دقة اللفظ بسمو المقصد الأخلاقي، مما يجعل من تفسيره نموذجاً فريداً يجمع بين رصانة الصناعة النحوية وعمق التوجيه المقاصدي.

الكلمات المفتاحية :الدرس اللغوي؛ أبو حيان الأندلسي؛ البحر المحيط؛ المقاصد الأخلاقية؛ القيم القرآنية.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب نورا لأهل العقول والألباب، وانتخب اللسان العربي وعاء لحمل المراد، والصلاة والسلام على أفضل من نطق بالضاد ، محمد بن عبد الله الذي اصطفاه ربه وهيأه ليكون قلبه منبعا لوحي رب العباد ، فكانت أخلاقه وحيا يمشي بين الأنام ، فصلى الله عليه وعلى آله وصحابته الأعلام ، الذين نهلوا من معينه الصافي، وشرعة مائه الرقراق الباقي ، فرضي الله عنهم وأرضاهم إلى يوم التلاقي.

أما بعد:

لقد عن إلى فكري وطار في ذهني أن أسود بعض الورقات، وأزبر بعض الكلمات، في هذا الموضوع الذي يعد من المواضيع المهمة في بابه، والمتفرد في مقصده ومأربه؛ لأن الأخلاق والقيم هي أساس كل ما في الوجود، وهي غاية الغايات، ومربط الفرس من خطاب الشريعة، ولا يمكن أن تحقق المقصد الأسمى من تعاليمها إلا عن طريق الدرس اللغوي، وأدواته، فهو الذي يسفر عن ملا محها ويزيل اللثام عن قسمات وجهها؛ ولذلك تأتي هذه المحاولة؛ لتنفض الغبار عن أركانها، وتضع اللبنة الأساس في صرحها، حتى يتسنى للباحثين مواصلة البحث في مضمارها، ويتبين المراد، ويظهر المقصود، سأتناول في هذه السطور ما يلي:

❖ **إشكالية البحث:**

إن التحليل اللغوي عند أبي حيان الأندلسي، يعد عنوانا بارزا في تفسيره، وبناء عليه جاء هذا البحث ليجيب عن الإشكال الآتي:

كيف أسهم التحليل اللغوي، بمستوياته اللفظية، والتركيبة، والبلاغية في إبراز المقاصد القيمية، والأخلاقية في "البحر المحيط" لأبي حيان الأندلسي؟

❖ **أهمية البحث:**

تتجلى أهمية هذا الموضوع فيما يلي:

- ✓ كونه موضوعا بكرا، لم يسل فيه مداد، ولم يشرع فيه باب.
- ✓ إنه يكشف اللثام عن الدرس اللغوي وعلاقته بالقيم والأخلاق، مع تقديم أمثلة من تفسير أبي حيان على تلكم العلاقة.
- ✓ يبرز أهمية الدرس اللغوي في تحديد القيمة، وإدراك مقاصدها الإيمانية والتعبدية.

❖ **أهداف البحث:**

تتمحور حول هدف أساس، وهو الكشف عن التفاعل الحاصل بين أدوات الدرس اللغوي، والتفاعل القيمي.

❖ **منهجية البحث:**

قد اعتمدت في إنجاز هذا البحث على عدة منهجية تتمثل في الآتي:

✍ **المنهج الاستقرائي:** وذلك باستقراء بعض الأمثلة من خلال تفسير البحر المحيط التي تدل على التفاعل بين الدرس اللغوي والقيم.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

✍ **المنهج الوصفي**: وذلك بتحليل ووصف النماذج وتفسيرها، ووضع اليد على ذلكم التفاعل الحاصل بين الدرس اللغوي، والمقاصد الأخلاقية.

✍ **المنهج الاستنباطي**: وذلك بالانطلاق من الجزئيات لاستنباط كليات وخلاصات تكون نبراسا للباحثين في هذا المضمار.

مدخل

أولا: القيم:

يقول الجوهري في الصحاح:" والقيمة: واحدة القيم؛ وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء. يقال: قومت السلعة. والاستقامة: الاعتدال. يقال: استقام له الأمر.

وقوله تعالى: "فاستقيموا إليه" أي في التوجه إليه دون الآلهة.

وقومت الشيء فهو قويم، أي مستقيم. وقولهم: ما أقومه، شاذ. وقوله تعالى: "وذلك دين القيمة" إنما أنثه لأنه أراد الملة الحنيفية."[1]

وورد أيضا في المصباح المنير:" والقيمة الثمن الذي يقاوم به المتاع؛ أي يقوم مقامه والجمع القيم مثل سدرة وسدر، وشيء قيمي نسبة إلى القيمة على لفظها."[2]

أما من حيث الاصطلاح، فقد " حظيت القيمة باهتمام كثير من الباحثين في تخصصات مختلفة؛ ولهذا اختلف الباحثون في وضع تعريف محدد لها، ومرد ذلك الاختلاف يعزى إلى المنطلقات النظرية التخصصية لهم، فمنهم علماء الدين، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، والفلاسفة، علماء الاقتصاد، علماء اللغة، وغيرهم.

فلكل منهم مفهومه الخاص الذي يتفق مع تخصصه، ففي رأي بعض العلماء أن اصطلاح القيمة، مرادف لاصطلاح نافع، أو لائق، وهناك من يقول: إن القيم هي الأفكار الاعتقادية المتعلقة بفائدة كل شيء في المجتمع."[3]

ويمكن أن أثبت هنا تعريف بعض الباحثين للقيم الإسلامية بأنها:" مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله، كما صورها الإسلام، وتتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الحياتية المختلفة، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتفق مع إمكانياته، وتتجسد من خلال الاهتمامات أو السلوك العملي بطريقة مباشرة وغير مباشرة."[4]

ثانيا: التعريف بأبي حيان الأندلسي رحمه الله

❖ **اسمه ونسبه:**

محمد بن يوسف بن علي بن حيان، أبو حيان الأندلسي الجياني. الغرناطي، المقرئ النحوي.[5]

1الصحاح مادة قوم

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت نحو ٧٧٠ هـ) 2المكتبة العلمية – بيروت

3 ينظر مقال بعنوان "القيم الروحية في السنة النبوية" الدكتورة فتيحة محمد بوشعالة مجلة المنهل عدد01 السنة 01 يونيو 2015.

4 مجموعة من المؤلفين ج79/1 ترقيم المكتبة الشاملة. ينظر كتاب "نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم"

[5] ينظر «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ص 387. الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى 1417 هـ-1997م وأيضا "أعيان العصر وأعوان النصر" 365/5. الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق – سوريا الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1998 م وأيضا " العقد المذهب في طبقات حملة المذهب" المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت 804 هـ) المحقق: أيمن

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كنيته:

اشتهر أبو حيان بهذه الكنية بين المؤرخين، وقد أكد هو نفسه هذه الكنية، كما ورد في تفسيره."[1]

فهنا أبو حيان يعترف بأن أهل الأندلس يستعملون الألقاب أكثر من الكنى عكس أهل المشرق، وهذا لا زال سائدا إلى اليوم، في هذا القطر من العالم الإسلامي.

ولم يشارك أحد أبا حيان بهاته الكنية غير عدد قليل من الأعلام، منهم أبو حيان التوحيدي، الشافعي علي بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدي شيرازي، وقيل: نيسابوري وقيل: واسطي ... صوفي السمت والهيئة، وتوفي في حدود الثمانين والثلاث مائة أو ما بعد الثمانين، والله أعلم"[2]

❖ **لقبه:**

العلامة الأوحد، أثير الدين[3]

❖ **مولده:**

ولد بمطخشارش مدينه من حضرة غرناطة، في آخر شوال سنة أربع وخمسين وست مائة.[4]

❖ **نسبته:**

الأندلسي، الغرناطي، النفزي، نسبة إلى نفزة، قبيلة من البربر.

والبربر–فيما يزعمون–من ولد بربر بن قيس بن عيلان بن مضر.

ولكن ابن حزم ينفى أن يكون البربر عربا.[5]

❖ **شيوخه:**

أخذ القراءات عن أبي جعفر بن الطباع، والعربية عن أبي الحسن الأبذي، وأبي جعفر بن الزبير، وابن أبي الأحوص، وابن الصائغ، وأبي جعفر اللبلي.

وبمصر عن البهاء بن النحاس، وجماعة.

نصر الأزهري – سيد مهني الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م وبغية الوعاة 280/1. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه الطبعة الأولى 1384-1964.

[1] البحر المحيط 518/9. الناشر: دار الفكر – بيروت عام النشر: 1420 هـ -2000 م

[2] الوافي بالوفيات 27/22 الناشر: دار إحياء التراث – بيروت عام النشر:1420هـ-2000م وينظر أيضا " العقد المذهب في طبقات حملة المذهب" ص 185 الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1417 هـ -1997 م

[3] ينظر طبقات الشافعية 67/3. المؤلف: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (ت 851هـ) المحقق: د. الحافظ عبد العليم خان دار النشر: عالم الكتب – بيروت الطبعة: الأولى، 1407 هـ

[4] بغية الوعاة 280/1. وكتاب " طبقات المفسرين للداوودي" 287/2. دار الكتب العلمية -بيروت

[5] بغية الوعاة 280/1. وأيضا "الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد" ص 6 المؤلف: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الإد فوي الشافعي (ت 748 هـ) تحقيق: سعد محمد حسن مراجعة: طه الحاجري الناشر: الدار المصرية للتأليف والنشر عام النشر: 1386 هـ -1966 م

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وتقدم في النحو، وأقرأ في حياة شيوخه بالمغرب، وسمع الحديث بالأندلس، وإفريقية والإسكندرية، ومصر والحجاز. من نحو أربعمائة وخمسين، شيخا؛ منهم أبو الحسين بن ربيع، وابن أبي الأحوص، والرضي الشاطبي، والقطب القسطلاني، والعز الحراني.

وأجاز له خلق من المغرب والمشرق؛ منهم الشرف الدمياطي، والتقي ابن دقيق العيد، والتقي ابن رزين، وأبو اليمن بن عساكر.

وأكب على طلب الحديث، وأتقنه وبرع فيه، وفي التفسير، والعربية، والقراءات، والأدب، والتاريخ، واشتهر اسمه، وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، وتقدموا في حياته، كالشيخ تقي الدين السبكي، وولديه، والجمال الأسنوي، وابن قاسم، وابن عقيل] والسمين، وناظر الجيش، والسفاقسي، وابن مكتوم، وخلائق."[1]

❖ **سبب انتقاله إلى مصر:**

تضاربت روايات المؤرخين في سبب انتقال أبي حيان من الأندلس إلى مصر، ومما ذكر في ذلك الخلاف الذي وقع بينه وبين بعض شيوخه.

يقول ابن حجر في هذا الصدد: "كان سبب رحلته عن غرناطة، أنه حملته حدة شبيبته على التعرض للأستاذ أبي جعفر ابن الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جعفر بن الزبير وحشة، فنال منه وتصدى للتأليف في الرد عليه، وتكذيب روايته فرفع أمره للسلطان بغرناطة فانتصر له، وأمر بإحضاره وتنكيله، فاختفى ثم أجاز البحر مختفيا ولحق بالمشرق، وتكررت رحلته إلى أن حل بالديار المصرية."[2]

❖ **وفاته:**

"ومات بمنزله خارج باب البحر في 28 صفر سنة 745".[3]

"وتوفي – رحمه الله تعالى – بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة، في يوم السبت بعد العصر، الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبع مئة، ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر، وصلي عليه بالجامع الأموي بدمشق صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر."[4]

المبحث الأول: علاقة القيم بالدرس اللغوي وتفسير القرآن الكريم.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: علاقة القيم بالدرس اللغوي.

إن اللغة العربية بجميع قواعدها، تعد حاملة للقيم، ولذلك اختارها الله تعالى لحمل رسالة الإسلام الخالدة، والإفصاح عن قيم الإسلام الفاضلة، ويمكن أن نلخص هاته العلاقة فيما يلي:

---

[1] طبقات المفسرين للداوودي 288/2. المؤلف: محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي (ت 945هـ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

[2] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 59/6 الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن – الهند الطبعة: الثانية (1392 هـ = 1972 م)

[3] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. (6/ 65)

[4] أعيان العصر وأعوان النصر (5/ 327) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ) المحقق: الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد قدم له: مازن عبد القادر المبارك الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق – سوريا الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1998 م

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

➢ **أولا**: أن الدرس اللغوي بأنواعه من صرف، ونحو، وبلاغة، هو المعيار الذي يضبط أداء النص للقيمة، ويمنع تعسف اللغة، وتجاوزها لحدود القواعد، ويسقط النص، والقيم التي يحملها لمخالفته لتلكم القواعد.

يقول ابن يعيش في شرحه لكتاب المفصل للزمخشري:" لا بُدّ في التفسير من استعمال العربيّة، والاستضاءة بدلالة ألفاظها؛ إذ كان مُنْزَلًا باللسان العربيّ، فلا بُدّ من معرفة ألفاظ العرب، والاطّلاع على مواضعها؛ إذ الألفاظ أدلّةُ المعاني، فكذلك أصولُ الفقه مرتبطةٌ بمعرفة العربيّة، لأنّه يُبتنى على معرفة الكتاب والسُنّةِ، ولا يُعْرَف معناهما إلا بمعرفة العربيّة، ولذلك كانت شرطًا في صحّة الاجتهاد."

قال الزمخشري: "ولا يتكلّموا في الاستثناء، فإنّه نحوٌ؛ وفي الفرق بين المعرَّف والمنكَّر، فإنّه نحوٌ؛ وفي التعريفَين، تعريف الجِنْس، وتعريف العَهْد، فإنهما نحوٌ؛ وفي الحروف كالواو والفاءِ و"ثمَّ" و"لامِ" المِلْك و"مِن" التبعيض ونظائرها"[1]

فانظر كيف أن التمكن من قواعد العربية هو أساس الاجتهاد، واستنباط ما في كتاب الله وسنة رسوله من قيم وأخلاق فاضلة.

➢ **ثانيا**: أن اللغة هي وعاء الفكر الذي تسيل منه العبارات فتتدفق بالمعاني لتسقي الفكر، فيزدهر ويؤتي أكله.

يقول الثعالبي رحمه الله مبرزا هاته الفكرة في حديثه عن العربية: " إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب كالينبوع للماء والزند للنار."[2]

➢ **ثالثا**: اللغة ليست أداة للتواصل فقط؛ بل هي منظومة قيمية متكاملة، فهي التي تعبر عن ثقافة الشعوب وقيمها وهويتها الثقافية والحضارية.

يقول الرافعي في كتابه وحي القلم:" أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجودًا متميزًا قائمًا بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة، والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها هو عمق الروح ودليل الحسن على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطماحها، فإن روح الاستعباد ضيق لا يتسع، ودأبه لزوم الكلمة والكلمات القليلة.

وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة، وكانت أمتها حريصة عليها، ناهضة بها، متسعة فيها، مكبرة شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها والمطابقة بين طبيعته وعمل طبيعته، وكونه سيد أمره، ومحقق وجوده، ومستعمل قوته، والآخذ بحقه، فأما إذا كان منه التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السوقية، وإصغار أمرها، وتهوين خطرها، وإيثار غيرها بالحب والإكبار، فهذا شعب خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف عن تكاليف السيادة، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، مجتزئ ببعض حقه، مكتفٍ بضرورات العيش، يوضع لحكمه القانون الذى أكثره للحرمان وأقله للفائدة التي هي كالحرمان.

لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكرة حتى أن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء.

---

[1] شرح المفصل لابن يعيش 56/1 دار الكتب العلمية لبنان ط 1 2001.

[2] فقه اللغة وسر العربية ص15 إحياء التراث العربي الطبعة: الطبعة الأولى 1422هـ - 2002م

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وما ذلّت لغة شعب إلا ذلّ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثة في عمل واحد: أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع."[1]

إن هذا النص يصور المشهد الذي تعيشه الأمة اليوم من انحطاط، وتمكن المستعمر من رقابها، وفرض لغته، حتى أجلب عليها بخيله ورجله، وصال وجال، فأصبح يهدد قيمها الحضارية والثقافية، محاولا انتزاع هويتها وثقافتها من جذورها.

المطلب الثاني: الدرس اللغوي أداة للوقوف على القيم الجمالية والمعرفية لتفسير القرآن الكريم.

إن خوض لجاج النص القرآني، واستكناه ما يحمل من قيم جمالية ومعرفية، يحتاج إلى امتطاء مطية الدرس اللغوي، وما يشتمل عليه من قواعد، وهو الأساس الذي يجعل الإنسان يدرك معاني القرآن الكريم، ويقف على وجوه إعجازه.

يقول أبو بكر الباقلاني رحمه الله مبينا إعجاز القرآن الكريم، وأنه ببلاغته أعجز البشر أن يأتوا بمثله:

"وإنما تعذر على البشر الاتيان بمثله، لأمور: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وبأوضاعها التي هي ظروف المعاني، والحوامل لها.

ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الاشياء المحمولة على تلك الالفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الافضل عن الاحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام مثله.

وإنما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه."[2]

يبرز هذا النص خصيصة النص القرآني، وانه معجز في نظمه ودقة إحكامه، وهذا بناء على اختيار الله تعالى للغة العرب، وعاء لحمل رسالة الإسلام الخالدة.

يقول ابن عطية مبرزا هذا المعنى: "فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة،.... والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامدة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام."[3]

---

[1] وحي القلم ج 3 ص 27/26 دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1421هـ 2000م

[2] إعجاز القرآن ص15 دار المعارف – مصر الطبعة: الخامسة، 1997م

[3] المحرر الوجيز 52/1. دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى - 1422 هـ

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المبحث الثاني: القيم الدينية في الدراسات اللغوية القرآنية.

الدراسات اللغوية المتعلقة بالقرآن الكريم، كما سبقت الإشارة إليه، قد اهتمت اهتمام كبيرا بإبراز مقاصد النص القرآني وما يحمله من قيم باعتماد التحليل اللغوي، وما يوفره الدرس اللغوي من قواعد وأسس، وهذا ما سأقف عليه في هذا النموذج الذي بين أيدينا، ولذلك سأقسم هذا المبحث إلى مطلبين اثنين:

المطلب الأول: نماذج وأمثلة للقيم في تفسير أبي حيان.

كما سبقت الإشارة فإن أبا حيان قد اعتمد الدرس اللغوي كأداة لتفسير كتاب الله تعالى، والوقوف على ما فيه من القيم الدينية والجمالية، وسأقتصر على بعض القيم لتجلية هذا الأمر وهي كالآتي:

قيمة الاستخلاف:

يقول أبو حيان رحمه الله تعالى في تفسيره عند قول الله تعالى:" وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ [سورة البقرة,٣٠]

"قرأ الجمهور خليفة بالفاء، ويحتمل أن يكون بمعنى الخالف، ويحتمل أ يكون بمعنى المخلوف، وإذا كان بمعنى الفاعل كان معناه القائم مقام غيره، في الأمر الذي جعل إليه، والخليفة قيل هو آدم؛ لأنه خليفة عن الملائكة الذين كانوا في الأرض أو عن الجن بني الجان، أو عن إبليس في ملك الأرض، أو عن الله، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس.

والأنبياء هم خلائف الله في أرضه ... وقيل: ولد آدم؛ لأنه يخلف بعضهم بعضا، إذا هلكت أمة خلفتها أخرى، قاله الحسن، فيكون مفردا أريد به الجمع، كما جاء وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض."[1]

فانظر كيف اعتمد الدرس اللغوي في تجلية معنى قيمة الاستخلاف، فإذا كان قول الله عز جل " خليفة" بمعنى " الخالف" أي اسم الفاعل، أو بمعنى" المخلوف" أي اسم المفعول، سيتغير معناه، حسب تصريف الفعل.

قيمة الصبر:

يقول أبو حيان رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى:" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ [سورة البقرة,١٥٣]

فالصبر قصر النفس على المكاره، والتكاليف الشاقة، وهو أمر قلبي .... وقد قيد بعضهم الصبر هنا بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض، وروي عن ابن عباس وبعضهم هو كناية عن الصوم، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر، وبعضهم قال: هو كناية عن الجهاد؛ لقوله بعده " ولا تقولوا لمن يقتل ..." وهو قول أبي مسلم.

والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ، فتندرج هذه الأفراد تحته."[2]

فعند تجلية أبي حيان للفظة الصبر ذكر في الأول معناه، موضحا هاته المفردة على وجه العموم، ثم من قال إنها كناية، وقد رجح في الأخير أنها لفظ عام كما عرفها في الأول.

---

[1] البحر المحيط 203/1. دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

[2] المصدر نفسه 638/1.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المطلب الثاني: العلاقة بين البناء اللغوي والدلالة القيمية.

إن الدرس اللغوي عند أبي حيان الأندلسي، لم يكن أداة لفهم القرآن الكريم، وحسب؛ بل هو محرك أساسي لتوجيه المعنى القيمي، ويتجلى هذا الأمر في صنيع أبي حيان من خلال ما يلي:

التقديم والتأخير:

يقول أبو حيان عند قول الله تعالى:" إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ [سورة الفاتحة,٥]

"فالتقديم عندنا إنما هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول.

وسب أعرابي آخر فأعرض عنه وقال: إياك أعني، فقال له: وعنك أعرض، فقدما الأهم".[1]

فانظر كيف وجه المعنى اللغوي القيمة، من خلال تقديم المفعول على الفعل للاهتمام والاعتناء به.

الدلالة الصرفية وأثرها القيمي:

يقول أبو حيان عند قول الله تعالى:" ۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ [سورة سبإ,١٠]

"وقرأ الجمهور: أوبي، مضاعف آب يؤب، ومعناه: سبحي معه، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وقال مؤرج، وأبو ميسرة: أوبي: سبحي، بلغة الحبشة، أي يسبح هو وترجع هي معه التسبيح، أي تردد بالذكر، وضعف الفعل للمبالغة، قاله ابن عطية.

والله تعالى نادى الجبال وأمرها بأن تؤوب معه، والصدى لا تؤمر الجبال بأن تفعله، إذ ليس فعلا لها، وإنما هو من آثار صوت المتكلم على ما يقوم عليه البرهان.".[2]

فمن خلال صنيع أبي حيان الأندلسي مع الدلالة الصرفية وتوظيفها في تحديد المعنى القيمي كما في هذا المثال، تتجلى عبقريته في جعل الدرس اللغوي يأخذ بزمام المعنى، ويوجهه.

المبحث الثالث: كيفية توظيف أدوات الدرس اللغوي في إبراز المقاصد الأخلاقية للنص في تفسير أبي حيان.

يعد أبو حيان صاحب نظرية فريدة في علوم اللغة، إذ بنى تفسيره "البحر المحيط" بناء محكما وشيد صرحه على توظيف أدوات الدرس اللغوي، وخاصة الجانب النحوي منه، وسأزيل اللثام على هذا المبحث من خلال المطلبين الآتيين: **المطلب الأول: الجانب اللفظي والتركيبي، ودوره في إبراز المقاصد الأخلاقية.**

تنبني نظرية أبي حيان الأندلسي اللغوية في شقين أساسيين: **علوم المفرد، وعلوم التركيب**، وقد دمج أبو حيان بينهما في تفسيره البحر المحيط، فأنتج نصا يعد خيطا ناظما للشبكة القيمية، وعنوان تكامل للمنظومة الأخلاقية من خلال كتاب الله تعالى.

فهو يبرز اللفظ ويجليه من جهة متن اللغة أولا، ثم الدلالة الصرفية ثانيا ثم الجانب التركيبي، الذي تنصهر فيه الدلالة اللفظية، لتجلي المعنى الأخلاقي والقيمي.

---

[1] البحر المحيط في التفسير» (1/ 42).

[2] نفسه (8/ 524).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يقول أبو حيان رحمه الله مفسرا قول الله تعالى:" ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ٢ [سورة الفاتحة,٢]

"الحمد الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها باللسان وحده، ونقيضه الذم، وليس مقلوب مدح، خلافا لابن الأنباري، إذ هما في التصريفات متساويان، وإذ قد يتعلق المدح بالجماد، فتمدح جوهرة، ولا يقال تحمد، والحمد والشكر بمعنى واحد، أو الحمد أعم، والشكر ثناء على الله تعالى بأفعاله، والحمد ثناء بأوصافه ثلاثة أقوال، أصحها أنه أعم، فالحامد قسمان: شاكر ومثن بالصفات".[1]

فانظر يا رعاك الله كيف ينطلق أبو حيان من متن اللغة والاشتقاق اللفظي إلى التركيب وبراعته في الربط بينهما، وذلك بأخذ القارئ والمتلقي إلى إدراك المعنى القيمي والأخلاقي للفظ "الحمد".

المطلب الثاني: الجانب البلاغي ودوره في إبراز المقاصد الأخلاقية.

يشكل الجانب البلاغي إحدى الركائز الأساسية عند أبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط، فهو ليس ثراء فكريا، ولا تزيينا لغويا؛ بل أداة للكشف عن المعاني والمقاصد الأخلاقية، وترسيخ المعاني القيمية في نفس المتلقي.

وهذا دأبه مع كل الألوان البلاغية، فهو يحولها من معان مجردة إلى صور حسية، ترتبط بالإيمان والعمل التطبيقي.

ودونكم مثالا على ذلك يقول أبو حيان عند قول الله تعالى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُم وَمَا كَانُواْ مُهتَدِينَ ١٦ [سورة البقرة,١٦]

"والاشتراء هنا مجاز كنى به عن الاختيار، لأن المشتري للشيء مختار له مؤثر، فكأنه قال: اختاروا الضلالة على الهدى، وجعل تمكنهم من اتباع الهدى كالثمن المبذول في المشترى، وإنما ذهب في الاشتراء إلى المجاز لعدم المعاوضة، إذ هي استبدال شيء في يدك لشيء في يد غيرك، وهذا مفقود هنا".[2]

الخاتمة:

وختاما فإن الدرس اللغوي عند أبي حيان لم يكن غاية في ذاته؛ بل وسيلة منهجية للكشف عن علاقته بالقيم والمقاصد الأخلاقية، من خلال تفسير كتاب الله تعالى في تناغم تام بين اللفظ والتركيب، الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى إدراك المعنى البلاغي.

وقد خلص البحث من خلال عرض النماذج السابقة إلى أن أبا حيان الأندلسي يعد أحد رواد التكامل المعرفي بين المقاصد اللغوية، والمقاصد الشرعية.

وتعد هذه المحاولة إجافة باب وفتحا للباب الباحثين ليسيلوا المداد في هذا الشق من الدرس اللغوي وأدواته لإدراك المقاصد القيمية.

[1] نفسه (1/ 32)

[2] نفسه (1/ 117).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

- «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ص 387. الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى 1417 هـ-1997م
- "أعيان العصر وأعوان النصر" 365/5. الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1998 م
- العقد المذهب في طبقات حملة المذهب" المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت 804 هـ) المحقق: أيمن نصر الأزهري - سيد مهني الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م
- بغية الوعاة 280/1. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه الطبعة الأولى 1384-1964.
- البحر المحيط 518/9. الناشر: دار الفكر - بيروت عام النشر: 1420 هـ -2000 م*
- الوافي بالوفيات 27/22 الناشر: دار إحياء التراث - بيروت عام النشر:1420هـ-2000م
- طبقات الشافعية 67/3. المؤلف: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (ت 851هـ) المحقق: د. الحافظ عبد العليم خان دار النشر: عالم الكتب - بيروت الطبعة: الأولى، 1407
- طبقات المفسرين للداوودي" 287/2. دار الكتب العلمية -بيروت
- "الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد" ص 6 المؤلف: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الإد فوي الشافعي (ت 748 هـ) تحقيق: سعد محمد حسن مراجعة: طه الحاجري الناشر: الدار المصرية للتأليف والنشر عام النشر: 1386 هـ - 1966 م
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 59/6 الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند الطبعة: الثانية (1392 هـ = 1972 م)
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت نحو ٧٧٠ هـ) 2المكتبة العلمية - بيروت
- ينظر مقال بعنوان "القيم الروحية في السنة النبوية" الدكتورة فتيحة محمد بوشعالة مجلة المنهل عدد01 السنة 01 يونيو 2015.
- مجموعة من المؤلفين ج79/1 ترقيم المكتبة الشاملة. ينظر كتاب "نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم"
- «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ص 387. الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى 1417 هـ-1997م وأيضا "أعيان العصر وأعوان النصر" 365/5. الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1998 م وأيضا " العقد المذهب في طبقات حملة المذهب" المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت 804 هـ) المحقق: أيمن نصر الأزهري - سيد مهني الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م وبغية الوعاة 280/1. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه الطبعة الأولى 1384-1964.
- البحر المحيط 518/9. الناشر: دار الفكر - بيروت عام النشر: 1420 هـ -2000 م
- الوافي بالوفيات 27/22 الناشر: دار إحياء التراث - بيروت عام النشر:1420هـ-2000م وينظر أيضا " العقد المذهب في طبقات حملة المذهب" ص 185 الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1417 هـ -1997م

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- طبقات الشافعية 67/3. المؤلف: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (ت 851هـ)
- المحقق: د. الحافظ عبد العليم خان دار النشر: عالم الكتب – بيروت الطبعة: الأولى، 1407 هـ
- شرح المفصل لابن يعيش 56/1 دار الكتب العلمية لبنان ط 1 2001.
- فقه اللغة وسر العربية ص15 إحياء التراث العربي الطبعة: الطبعة الأولى 1422هـ - 2002م
- وحي القلم ج 3 ص 27/26 دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1421هـ 2000م
- إعجاز القرآن ص15 دار المعارف – مصر الطبعة: الخامسة، 1997م
- المحرر الوجيز 52/1. دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى - 1422 هـ

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/